الباب الثانى
وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم

وفيه فصول سبعة

الفصـــل الأول : فى بيان إعجاز القرآن الكريم

الفصـــل الثانـى : فى الإعجاز البيانى

الفصـــل الثالـث : فى الإعجاز الغيبى

الفصل الرابـــع : فى الإعجاز القلبى والنفسى

الفصل الخامس : فى القول بالصرفه

الفصل السادس : فى الإعجاز العلمى

الفصـــل السابـع : فى الإعجاز العقدى والتشريعى

الفصل الأول
بيان إعجاز القرآن الكريم

المراد ببيان الإعجاز هو النظر إلى مجموع إعجاز القرآن بنظرة كلية شاملة تعالج المشكلات المتصلة بقضية الإعجاز، أما وجوه الإعجاز التى سنفصلها بعد الانتهاء من هذا الفصل فهى نظرة جزئية تفصيلية إلى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم.

بيان الإعجاز:

جاء رسول الله ﷺبدعوة التوحيد فى وسط نشأ على عبادة الأصنام وراح رسول الله ﷺيدعوهم إلى الدين الجديد ويسفه ماهم عليه من الباطل. إلا أن المشركين تمسكوا بباطلهم، وكذبوا رسول الله ﷺولم يعترفوا بنبوته، فكشف لهم رسول الله ﷺعن المعجزة الكبرى المصدقة له فى دعواه وهى القرآن الكريم.

وما هو القرآن الكريم؟

حروف وكلمات عربية ينطقون بها ليلا ونهارا، ويكونون منها نثرهم وشعرهم وسجعهم، ولم يطلب منهم أكثر من أن يأتوا بمثل هذا القرآن المركب من الحروف العربية، والكلمات العربية، والجمل العربية، والغريب فى الأمر أن هؤلاء العرب كانوا أساتذة البيان وفطاحل اللغة، وبحور الشعر والبلاغة والفصاحة. ومع ذلك يتحداهم رسول الله ﷺفى جنس ما برعوا فيه، وما اشتهروا به. إلا أنهم عجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بمثله، بل طاشت عقولهم وراحوا يقولون إن محمداً قد تقول ما يدعى أنه وحى من عند الله، فكانت الحجة الدامغة عليهم هى أول آية من آيات التحدى فى سورة الطور «أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين»(١).

---

(١) الطور (٣٣ - ٣٤).

ثم دفعهم إلى التحدى فى آية أخرى فقال: «قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى»[١] إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بكتاب مثل القرآن الكريم فخفف عليهم التحدى وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[٢].

فلما عجزوا زاد فى تخفيف التحدى، فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال «أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[٣] وفى هذه الآية طلب منهم أن يستعينوا بمن شاءوا من المخلوقات وذلك دفعا لهم وحثا على محاولة التحدى.

وقد نزلت آيات التحدى هذه بمكة، فلما انتقل الرسول إلى المدينة جدد الله التحدى فى أول سورة نزلت بالمدينة وهى سورة البقرة والتى نزل فيها قول الله تعالى «وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»[٤].

ونلاحظ فى هذه الآية الأخيرة استحثاثا ودفعا شديدا إلى محاولة التحدى حيث انبأهم بأنهم لن يستطيعوا مقدما أن يأتوا بشىء فلما عجزوا عن الاتيان بمثل سورة واحدة مع أن أقصر سورة من القرآن داخلة فى نطاق التحدى، لأن القرآن سهل عليهم المهمة باطلاق لفظ سورة بهذا الاطلاق معناه التحدى بأقصر سورة وهى سورة الكوثر ذات الآيات الثلاث والكلمات (العشر) فكم يا ترى فى القرآن من مثل سورة الكوثر!!

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بمثل أقصر سورة منه على الرغم من كثرة البلغاء والفصحاء فيهم كثرة رمال الصحراء وحصى البطحاء وشهرتهم

---

(١) القصص ٤٩.
(٢) هود ١٣.
(٣) يونس (٣٨).
(٤) البقرة ٢٣، ٢٤.

بغاية العصبية والحمية الجاهلية[١]، نادى عليهم القرآن نداءه الأخير الذى يحثهم على المعارضة، وفى الوقت نفسه يقطع كل أمل لهم فيها، بل إن التحدى فى هذا النداء لم يقف عند حدود العرب وحدهم ولا حتى كل بنى الإنسانية بل تعداهم إلى الجن أيضاً فقال: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[٢].

وهكذا طاولهم القرآن فى التحدى. وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن إلى التحدى، بعشر سور مثله، ثم إلى التحدى بسورة واحدة.

وقد كان الرسول يدفعهم إلى المعارضة والتحدى فيقول لهم «لو عارضتم سورة من القرآن لألقينا إليكم السلم وأذعنا إليكم»[٣].

ولكن ما هو وجه الاعجاز فى تحدى العرب مع عجزهم؟.

والجواب :

أولاً : أن القرآن الكريم تحدى أمة مطبوعة على اللغة الفصحى. الشعر والبلاغة هى شغلها الشاغل، وهى مناط التفاضل بين قبائل العرب حتى بلغ من تقديسهم للغة والفصاحة أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة والندوات الجامعة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، حتى أن القبيلة كان يرفعها بيت واحد من الشعر يكون رائعاً فى مدحها، ويضعها بيت يكون لاذعا فى ذمها[٤] ومع علوهم فى البلاغة والفصاحة تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا.

---

(١) المقاصد – جـ ٢ ص ١٣٥.

(٢) الإسراء ٨٨.

(٣) د. محمود بركات، قضايا النبوات صـ ٨١.

(٤) ومن يريد الاستدلال على ذلك فعلية بالعودة إلى الشعر الجاهلى والمعلقات السبع، فهذا الشعر هو الأثر الباقى من كلامهم، وهو الشاهد على بلوغ لغتهم غاية التمام والكمال فقد اجتمعت فيه ضروب كثيرة من ألوان البيان والفصاحة، هذا الشعر الذى كان هو دستورهم وفخرهم والذى عكفوا عليه عكفوهم على أصنامهم يسجدون لأبياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم، فقد كانوا عبده البيان والأوثان معاً.=

ويعبر القاسمي عما سبق بأسلوب غاية في الروعة فيقول: وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص غيرهم من الأمم، وأتوا من ذربة اللسان مالم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يأخذ الألباب (....) لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها. ودخلوا كل باب من أبوابها، وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والثمين»(١).

ثانيا : أن العرب كانوا أحرص ما يكون على إطفاء نور القرآن الكريم وإثبات كذب محمد ﷺ حيث عاب آلهتهم وسفه أحلامهم واستهزأ بهم ومقدساتهم أيما استهزاء. وكان العرب في الحمية والأنفة بحيث لا يقبلون مثل

= وكان غرام العرب بالشعر يدفعهم إلى الاعتداد بالشعراء حتى كان الشاعر يحتل من قبيلته مكان الصدارة، لأنه المحامي عن كرامتها – المسجل لمفاخرها، الناطق بلسانها حتى أنهم كانوا يحتفلون بمولد الشاعر، أي ظهوره في القبيلة ودع عنك الخطابة وما برعوا فيها، حتى أن المفاخرات والمنافرات كانت تستمر بين خطباء القبائل أسابيع كاملة راجع صـ ٩ من كتاب «مناهج التأليف عند العلماء العرب» د. مصطفى الشكعة – بيروت سنة ١٩٨٢.

والشعر الجاهلي هو الأثر الباقي من بلاغتهم وفصاحتهم وهو الدليل على ما نقول: من أن العرب قد بلغوا في الفصاحة مداها، وان كان المستشرقون ومن أقتفى أثرهم قد حاولوا التشكيك في قضية الشعر الجاهلي فقد أدعى المستشرق الأنجليزي اليهودي «مرجليوث» أنه شعر مشكوك في روايته، وأنه موضوع بعد الإسلام، وقد تولى كبر هذه الفرية ذيل من ذيول المستشرقين هو «طه حسين» هذا الذي كتب كتابا خاصا في الشعر الجاهلي يحاول من خلاله أن ينشر فكر مرجليوث وأرائه الهدامة في الشعر الجاهلي، في محاولة خبيثة للطعن في إعجاز القرآن الكريم، لأن الشعر الجاهلي هو الشاهد والبرهان على أن القرآن قد تحدى أقواماً بلغوا في الفصاحة مداها – ومع ذلك عجزوا عن الاتيان بمثله فإذا ما شكك المضللون في وجود الشعر الجاهلي من أساسه فانهم بذلك يطعنون في مقدمة من مقدمات الدليل على إعجاز القرآن.

ولن نناقش هؤلاء المضللين بفكرنا وإنما سندع محاكمتهم إلى رجل من بني جلدتهم هو المستشرق «آربري» الذي درس موضوع الشعر الجاهلي دراسة موضوعية ثم عقب على دراسته بقوله:

«إن المسفسطة – وأخشى أن أقول : الغش – في بعض الأدلة التي ساقها «مرجليوث» أمر بين جداً ولا يليق البتة برجل كان ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره» وهذا حكم شنيع لا على مرجليوث وحده بل على كل أنبياء وكهنته وعلى ما جاءوا به من حطام الفكر.

راجع ص ١٤ من كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.

(١) محاسن التأويل جـ ٢ صـ ٧٥ عن صـ ١٤٢ من القرآن يتحدى للأستاذ أحمد عز الدين خلف الله.

هذا الاستهزاء. فلو كان فى مقدورهم أن يعارضوه، لعارضوا ومع ذلك لم ينقل أن واحداً منهم قد حاول، بل عدلوا عن ذلك إلى الجدل والمهاترات فقالوا عن القرآن إنه سحر وقالوا عنه إنه شعر وقالوا إن هى إلا أساطير الأولين إكتتبها وقالوا: وقالوا: ولم يزد القرآن على طلب الإتيان بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا، لأنه لو كان فى مقدورهم لفعلوا.

بل إنهم سلكوا الطريق الصعب الذى فيه هلاكهم وهو طريق المعارضة الحربية فاندفعوا إلى مقاتلته دون مقابلته، وإلى مقابلته بالألسنة دون الألسن، وبالحراب بدل الكتاب، واحجم أبو سفيان عن تجنيد جيش من شعراء الجزيرة العربية وأدبائها لمعارضة القرآن. وجند بدلا من ذلك جيشا من عشرة آلاف مشرك لمقاتلة الرسول(١).

وهذا أكبر برهان على عجزهم عن الاتيان بمثل القرآن.

وعجزهم هذا مع وجود الدوافع إلى المعارضة هو عين إعجاز القرآن الكريم.

وقد يدعى أحد بأن القرآن قد عورض من مسيلمة الكذاب؟ والجواب أن معارضة مسيلمة الكذاب للقرآن الكريم أضافت شهادة جديدة على إعجاز القرآن، وعجز بنى البشر والجن عن الإتيان بمثله، حيث كشفت هذه المعارضة عن البون الشاسع بين كلام الخالق وكلام المخلوق ولنبرهن على هذه الحقائق بذكر نماذج من معارضة هذا الكذاب.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه هرطقة من القول «والليل الدامس والذئب الهامس، ما قطعت لسيد من رطب ولا يابس» وكان قد ذكر هذا الكلام فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه.

وكان يقول: «ياضفدع بنت ضفدعين، نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون».

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد الغزالى نظرات فى القرآن صـ ١٦٣، ١٥٩ القاهرة ١٩٦٣ وراجع صـ ٤٤٩ من نهاية الإقدام للشهرستانى.

وكان يقول :

«والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه. والباغى فناوئوه»، وسألته مرة سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تدعى أنها رسولة ونبية واجتمعت مع مسيلمة تسألة عما أوحى إليه فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى ما بين صفاق ومشا».

قالت له فما بعد ذلك؟ قال أوحى إلى «أن الله خالق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فنولج فيهن قعسا إيلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا فينتجن لنا سخالا إنتاجا».

فقالت له سجاج أشهد أنك نبى[1]؟!!.

هذا ما عورض به القرآن الكريم وهو برهان جديد على أن القرآن من عند الله حيث فقد مسيلمه فى كلامه كل معانى البلاغة والفصاحة والبيان وجمع بين كل وحشى ومستغرب من الكلام، إلى جانب تنافر الكلمات والمعانى. وبالجملة فقد جمع مسيلمة فى كلامه بين كل المسالب والعيوب التى حذر منها البلاغيون، بل اللافت للنظر فى أمر معارضة مسيلمة أنه لم يستطع وهو العربى الخالص أن يحتفظ حتى باسلوبه العادى فى الحديث، بل نزل إلى حد الإسفاف، وأتى بالعبث الذى يأتيه الصبيان فى مداعبتهم حين يقلبون الأغانى والأشعار عن وجهها، فيأتون بألفاظ سوقية ومعان سوقية وهذا ما فعله هذا الكذاب حين عارض سورة والعاديات ضبحا بقوله: «والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا».

وقد كان مسيلمة الكذاب نفسه يشعر بمدى حقارة ما يقول، فقد رآه عمرو ابن العاص وهو فى طريقه إلى البحرين وجلس إليه يسمع ما يقول من الهراء ويبدو أن عمراً قد تعجب من حقير قوله، فإذا بمسيلمة يقول إن محمداً قد أرسل

(١) اعجاز القرآن للباقلانى صـ ١٥٧.

فى جسيمات الأمور – أى عظيمها – وأرسلت فى المحقرات، فلما سمع منه عمرو ما سمع قال: «انك والله تعلم وإنا لنعلم إنك من الكاذبين»[١].

وروى أن أبا بكر الصديق قد سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفه عن هذه الالفاظ، فحكوا بعض ما نقلناه فقال أبو بكر؟: سبحان الله ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج من إل، فأين كان يذهب بكم؟.

ومعنى قوله لم يخرج من ال أى عن ربوبية[٢].

ولو كان هذا الكلام معارضة حقيقية للقرآن الكريم، لتعلقت به العرب وأهل الردة. ولكن نظراً لسخافته وسماجته وبعده حتى عن أن يكون كلاما عاديا، أو نثرا عربيا، لم يتعلق به أعداء الإسلام[٣] ولاحتى ذكروه فى نقدهم للقرآن الكريم. ويبدو أن مسيلمة لم يقل هذا الكلام على أنه معجزة، وإلا فهو مخبول فى عقله.

يقول الرافعى : إن مسيلمه لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية، إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيرا فى نفوسهم، ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان فى الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه من كلام الجن، فراح يقول هذه الاسجاع ليوهم أنه يوحى إليه كما أوحى إلى محمد، ولم يفلح فى هذه الحيلة فقد كان أهله وعشيرته يعرفون أنه كذاب ويقولون عنه: إنه لم يكن فى تعاطيه الكهانة حاذقا، ولا فى دعوى النبوة صادقا وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم «كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»[٤].

---

(١) د. عبد الرؤف مخلوف – الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن صـ ٢٣ بيروت ١٩٧٣.

(٢) إعجاز القرآن ص ١٥٨.

(٣) راجع كتاب التمهيد للباقلانى ص ١٢٨.

(٤) راجع إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى.

ويروى التاريخ أن ثلاثة من الأدباء الملحدين والحاقدين على الإسلام وهم أبو العلاء المعرى[١] فى كتابه الفصول والغايات».

وأبو الطيب المتنبى[٢]، وابن المقفع، قد حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن فما كادوا يبدأون المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم، لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالة المحاولة.

وحديثاً حاول زعماء البهائية[٣] والقاديانية أن يضعوا كتبا يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن. ثم خافوا وخجلوا أن يظهروها للناس، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتى على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف إذا ما استحر فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها.

وقد عبر المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز عن هذه الأصناف التى حاولت أن تعارض القرآن الكريم بقوله: «وإن فى التاريخ لعبرا تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا فى معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام

---

(١) وقد روى ياقوت الحموى فى «معجم الأدباء» معارضة أبى العلاء التى يقول فيها: «اقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، مابين الأشراط ومطالع سهيل – إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل اتق مدارج السبل وطالع التوية من قبل تنج، وماإخا لك بناج، معجم الأدباء جـ ٣.
وإن كان كثير من الباحثين يرجحون إن هذا الكلام مما نسب زورا إلى أبى العلاء ولم يقله، فإن ذوقه الأدبى يحميه من أن يزل هذه الزلة خاصة وأنه قد صرح بإعجاز القرآن فى «رسالة الغفران» وعلى أية حال فقضية أبى العلاء والمتنبى تحتاج إلى بحث دقيق فقد اختلف فيها الأدباء المحدثون بين مؤيد ومعارض.

(٢) جاء فى الصبح المنبىء جـ ١ صـ ٢٥ أن عبد الله بن معاذ بن اسماعيل قال للمتنبى: «والله إنك شاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فأجابه المتنبى مستنكرا، ويحك اتدرى ما تقول: «أنا نبى مرسل» ثم يعرض عليه معجزته التى كتبها ويوصيه بالإسرار وعدم إذاعة النبأ.
ومع أن بعض الباحثين قد نفى عنه هذه التهمة إلا أن معظمهم مجمعون على اتهامه بالانتماء إلى عقيدة القرامطة التى أحلت ما حرم الله وغيرت معالم الصلاة واستقبلت بيت المقدس [صـ ٢٣ من كتاب المتنبىء بين ناقديه – للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب – القاهرة دار المعارف] ومما يؤيد دعوى النبوة عند المتنبىء هذا البيت الذى يقول فيه:

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

(٣) راجع ص ٢٠٩ من كتاب الظاهرة القرآنية حيث يقول مالك بن نبى إن زعيم البابية قد ألف كتابا بعنوان «البيان العربى».

أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عواره، باق عاره وشناره: «فمنهم عاقل استحيى أن يتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته ومنهم ماكر وجد الناس فى زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته فطوى صحفه وأخفاها إلى حين، ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية للساخرين ومثلا للآخرين[1].

هذه هى الأصناف التى حاولت هذه المحاولة الفاشلة. ولكن هيهات هيهات، فأين هؤلاء من العرب البلغاء الفصحاء؟ ومع ذلك فروا من ميدان المعارضة – وهو أسهل وأهون – إلى ميدان الحروب وعرضوا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبى والأسر. فلو كانوا يستطيعون المعارضة لما سلكوا مثل هذا الطريق الوعر. بل كانوا كفوا أنفسهم شر القتل بالإتيان بسورة واحدة من مثله، إلا أنهم لم يستطيعوا.

ولكن لماذا عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن؟ والجواب أن ذلك لأمور كثيرة منها:

أن علم البشر لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، ولا تدرك أفهامهم جميع معانيها، ولا يعرفون كل وجوه النظم والتركيب التى بها إئتلاف الألفاظ والمعانى حتى يأتوا بكلام مثله، والكلام لا يقوم إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

لفظ حاصل.

ومعنى به قائم.

ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا هذه الأمور منه فى غاية العلو والارتفاع.

حتى أننا لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أعذب ولا أجزل من ألفاظه.

ولا نرى نظما أحسن تأليفا وتركيبا من نظمه، وأما معانيه فكل عاقل يشهد له بكمالها ورقيها. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام،

---

(١) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم ص ٨٢.

فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد فلم توجد إلا فى كلام العليم الخبير[١]. الذى ارتقى إلى ذروة السنام التى لا يستطيع أن يرقى إليها أنس ولا جان ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إن القرآن فضلا عن نظمه وتركيبه من أفصح الألفاظ فى أحسن طرق التأليف وتضمنه أصح المعانى، فضلا عن ذلك إنكشفت أمامه حجب الغيب فأخبر عن المغيبات الماضية والمستقبلة، وحوى كل ما تحتاجه الإنسانية فى عاجلها وآجالها، من العقائد الصحيحة والمعاملات والنظم التى عجزت كل تشريعات البشر عن أن تضارعها، بالإضافة إلى إشتماله على دقائق العلوم وغير ذلك من وجوه الإعجاز، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تظهر فى هذه الصورة العجيبة يعجز عنه البشر ولا تبلغه قدرتهم، ومن هنا عجزوا عن معارضته أو الإتيان بمثله.

بيان إعجاز القرآن بطريق الواقع المحسوس:

وإذا كان العقل قد دلل على إعجاز القرآن حيث تحدى العرب من جنس مابرعوا فيه، فعجزوا مع وجود الدوافع والأسباب التى تدفعهم إلى خوض معركة التحدى، فإن الواقع المحسوس يبين لنا هذا الإعجاز بطريقة أخرى.

ذلك أن آيات التحدى ما زالت مسجلة فى كتاب الله تعالى، تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف مذاهبهم وأممهم فى كل عصر وقرن، فما استطاع واحد منهم مهما كان عصره وتاريخه وعلمه أن يسجل إلى جانب هذا التحدى عملا يصح أن يقال إنه قد عارض به القرآن، فهذا من أجلى الدلالات المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن، وهذا ما يمكن إن نسميه بدلالة الواقع خلال التاريخ والقرون[٢].

---

(١) الأتقان جـ ٢ صـ ١٢١.

(٢) د. محمد سعيد رمضان – من روائع القرآن صـ ١٦٣.

وجـه التحدى بالقرآن:

زعم قوم أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات[١] وأن العرب قد كلفت فى ذلك مالا يطاق وبه وقع عجزها.

ولكن هذا الكلام باطل من وجوه:

الأول: أن الصفة القديمة بالنسبة لله لا يمكن لمخلوق أن يقف على كنهها ومالا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدى[٢] به، فهل يعقل أن نأتى إلى رجل عاجز لايستطيع القيام، أو أبكم لا يستطيع الكلام ونتحداهم من جنس ما عجزوا فيه. ومالم يدخل فى نطاق قدرتهم؟ فنقول للأول اتحداك أن تقوم، وللثانى اتحداك أن تتكلم؟ كلا!! فالتحدى إنما يكون من جنس مابرع فيه الناس لا من جنس ما عجزوا عنه.

ومن غير المعقول أن يتحداهم الله أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له، لأن تكليف مالا يطاق غير جائز.

الثانى: أن التورة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة على رسل الله قبل الإسلام هى عبارة عن دلائل على الكلام القديم وليس شيئاً منها بمعجز فى النظم ولا فى التأليف[٣].

الثالث: أنه إذا لم يكن المعجز إلا المعانى القديمة فإن الحروف المسموعة المتلوه الآن ليست معجزة وهذا خطأ فاضح[٤].

ومن هنا ذهب الجمهور إلى أن التحدى إنما وقع بما دل على الكلام القديم وهو الحروف والألفاظ التى هى نظم القرآن الكريم (حكاية لكلامه ودلالات عليه وإمارات) منظومة كنظمه ومتتابعة مطرده كاطراده. وقد تساءل الإمام عبد القاهر

---

(١) وقد نسب ابن حزم هذا الرأى إلى الأشعرى فى أحد قوليه – راجع الفصل جـ ٣ صـ ٢٥.

(٢) الإتقان جـ ٢ صـ ١١٨.

(٣) الباقلانى – إعجاز القرآن صـ ٢٦٠.

(٤) راجع الفصل نفس الموضع.

الجرجاني عما أعجز العرب من الألفاظ وما بهرهم فيها؟ ثم أجاب بكلام فى غاية الإبداع يقول فيه:

«أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه، وبدائع راعتهم فى مبادىء آيه ومقاطعها ومجارى ألفاظه ومواقعها، وفى مضرب كل مثل، ومساق كل خبر وصورة كل عظة. وتنبيه وإعلام، وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبوا بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح، أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا، بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع فى نفس بليغ منهم – ولوحك بيافوخه السماء – موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول»(١).

هذا وقد ذهب المرحوم الدكتور محمد البهى إلى أن وجه التحدى بالقرآن ليس هو أسلوبه أو ألفاظه أو نظمه، بل بما فيه من مبادىء وأهداف سامية صالحة للبشرية.

ويستشهد على ذلك بقوله الله تعالى «قل فأتوا بسورة من مثله وأدعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله»(٢).

ووجه استدلاله بهذه الآية يقوم على أساس أن القرآن قد أشار إلى أن رفض المشركين للقرآن كان مبكرا سابقا على إحاطتهم به، كما كان سابقا على عدم وقوفهم على مبادئه وأهدافه، إذ لو أنهم أحاطوا به علما ووقفوا على أهدافه ومبادئه ربما ترددوا فى رفضه «لأن فيه من المبادىء والأهداف ما يحمل غير المتحزب لهواه على الاعتراف.

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٢.

(٢) يونس (من ٣٨ ومن ٣٩).

يقول الدكتور محمد البهى «وفى مضمون هذا التعليق ما يدل على أن المماثلة المتحدى بها، ليست مماثلة إختيار اللفظ وحسن صياغة التركيب، بقدر ماهى فى صلاحية مبادئة للبشرية وعمومها للناس كافة، وبقدر ماهى فى تجردها من البواعث الخاصة[1].

ووجهة نظر الدكتور محمد البهى لها احترامها وتقديرها إلا أن الواقع لا يؤيدها إذ أنه من غير المعقول أن يتحدى القرآن العرب بالإتيان بما فيه من مبادىء وأهداف وقوانين وتشريعات لأن هذا أمر فوق طاقتهم، فلم يبرع العرب فى أمور التشريعات والقوانين والمبادىء والكونيات حتى يتحداهم القرآن بالإتيان بمثلها، ولو كان الأمر كذلك لقال العرب إن محمد قد تحدانا بأشياء لا نعرفها ولا نعلمها وليس لنا فيها براعة ولا طول يد ومن هنا لاتقوم عليهم الحجة.

ولذلك فالرأى الصحيح فى وجه التحدى بالقرآن هو رأى الجمهور وسوف يأتى لذلك مزيد بيان حينما نتحدث عن الإعجاز البيانى إن شاء الله.

حدود التحدى بالقرآن الكريم:

المراد بحدود التحدى بيان من هم المتحدُّون بالقرآن الكريم هل هم العرب وحدهم؟ أم العجم وسائر الإنسانية معهم؟ وهل يدخل معهم رسول الله ﷺ وأصحابه؟ وهل يدخل معهم الجن أيضاً؟ أم لا؟

لاشك أن التحدى بالقرآن الكريم إنما كان لكل إنسان على هذه الأرض عربياً كان أم أعجمياً وذلك لعموم الآية الكريمة «قل لئن اجتمعت الأنس والجن».

وقد يقول قائل كيف يتحدى القرآن أجناساً لا تتحدث العربية ولا تعرف عنها شيئاً؟

وقد أجاب البعض على هذا الاعتراض بجواب ضعيف مضمونه: أن وجوه الإعجاز فى القرآن كثيرة، وإن كان هؤلاء جاهلين باللغة العربية، فهم عاجزون عن

---

(١) د. محمد البهى، نحو القرآن صـ ١١.

باقى الوجوه الأخرى مثل الإخبار بالمغيبات وغير ذلك ووجه الضعف فى هذا الجواب أنه قد سلم لهم إسقاط الإعجاز البيانى، وهو مرفوض.

ولذلك فالجواب الصحيح أن يقال:

إذا كان العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة، وأصحاب البيان واللسان العربى قد عجزوا عن الإتيان بمثله، فإن غيرهم من الأجناس الأخرى ومن الذين أتوا بعد العصر الأول يكونون أشد عجزاً.

بل إن عجز العرب الفصحاء عن تحدى القرآن إنما ينبغى أن يكون معجزة حسية أمام غير البلغاء وغير الفصحاء على صدق القرآن، بل هى حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا وغير ذلك[١].

وفى هذا رد على أولئك الذين ينقصون من قدر الإعجاز البلاغى والبيانى فى العصر الحديث بحجة أن أذواق الناس قد ضعفت وعجزت عن تذوق بلاغة القرآن الكريم، يقول الدكتور الغمراوى «وإثبات أن القرآن هو حقاً كتاب الله عن طريق الإعجاز البيانى والبلاغى لم يعديكفى لاقناع المثقف المتشكك، لأن مثقف اليوم لايدرى من علم العربية وذوقها ما يدرك به هذا الإعجاز»[٢].

وقد ذهب إلى هذا الرأى أيضاً المفكر الجزائرى مالك بن نبى حيث ادعى أن مقاييس البلاغيين لاستخراج إعجاز القرآن من الناحية الأسلوبية لم تعد كافية اليوم لاقناع غالبية المسلمين المثقفين بالثقافة الغربية، بل وربما بالنسبة لذوى الثقافة التقليدية[٣].

بل وينتهى مالك إلى هذا الحكم الذى يقول فيه: «والحق أنه لا يوجد مسلم، وبخاصة فى البلاد غير العربية - يمكنه أن يقارن موضوعيا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلى، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك فى

---

(١) الباقلانى - إعجاز القرآن ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٠٦.

(٣) الظاهرة القرآنية صـ ٦٥.

أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة»[١].

هذا ما قاله مالك فى هذه القضية الحساسة ونحن نخالفه تماما كما نخالف ما ذهب إليه الغمراوى: ذلك أن إعجاز القرآن البلاغى ما يزال قائماً، والعصر لم يخل من أدباء وفصحاء يدركون إعجاز القرآن والقول ما يقوله المتخصصون، وأنا لا أستطيع أن أناقش فى النظريات الهندسية التى تخصص فيها مالك بن نبى، كما لا أستطيع أن أرفض قوانين الكيمياء التى تخصص فيها الدكتور الغمراوى لمجرد أنى لا أستطيع فهمها، وإنما يحتم على منطق العلم أن أسلم بها بناء على أبحاث المتخصصين، وكذلك الحال فى بلاغة القرآن وبيانه، فإذا لم يتذوقوه فليس عيبا أن يسلموا بكلام من تذوقوه، أو على حد قول المرحوم الدكتور محمد البهى: إن العرب هم أهل الاختصاص بين الجنس البشرى بأسلوب القرآن ومتى قامت الحجة على أهل الاختصاص، فإنها تقوم على الباقين الآخرين بين الناس جميعاً بالأولى[٢].

ويقول الإمام أبو الحسن الأشعرى فيما ينقله السيوطى فى - معترك الأقران- «والذى نقوله إن الاعجمى لايمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالا، وكذلك من ليس ببليغ - فأما البليغ الذى أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعه، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله»[٣].

ومن الباحثين من حاول أن يهرب من هذه المشكلة بالتفريق بين الإعجاز والتحدى، حيث جعل التحدى خاصا بفصحاء العرب من المشركين فقط.

أما الإعجاز فهو عام لكل البشر، وقد ذهبت الدكتوره بنت الشاطىء إلى هذا الرأى السابق[٤]، وفى نظرى أن الإعجاز والتحدى متلازمان، ولا ينفك

---

(١) السابق ص ١٥.

(٢) نحو القرآن صـ ١٠.

(٣) السيوطى - معترك الأقران صـ ٦ تحقيق على محمد البجاوى القاهرة سنة ١٩٧٣ وقارن صـ ٢٩٥ جـ ١٦ من المغنى للقاضى عبد الجبار.

(٤) د. عائشة عبد الرحمن - الإعجاز البيانى للقرآن صـ ٦٨ - القاهرة دار المعارف.

أحدهما عن الآخر فالقرآن يتحدى البشرية أيا كان زمانها وأيا كان مكانها، وعجزها عن الإتيان بمثله هو عين الإعجاز.

وهكذا فالعامة وفاقدو الحس البياني يكفي أن يعلموا أن القرآن قد تحدى أفصح الفصحاء فعجزوا، ومن هنا يكون غير المثقفين اليوم وفاقدو الحس البلاغي أشد عجزا، وأشد ايمانا بصدق القرآن الكريم وإعجازه البياني، أو على حد قول الإمام الباقلاني: إنهم إذا عرفوا عجز أهل صنعة البلاغة والفصاحه، حلوا محلهم وجروا مجراهم في توجه الحجة عليهم[١] إذا فهؤلاء الذين لايفرقون بين بلاغة القرآن وإعجازه البياني، وكلام العرب وأشعارهم، عليهم أن يعودوا إلى شهادة أهل الفصاحة من العرب، وحسبنا شهادة عدو من أعداء القرآن هو الوليد بن المغيرة.

أو كما قال القائل:

وإذا لم تر الهلال فسلم ..... لأناس رأوه بالأبصار[٢].

وهكذا تقوم الحجة على العالم كله بالعرب، ذلك أن حدود التحدي كاملة لكل بني الإنسانية عربا أو عجماً، من أهل الصنعة والبلاغة أو من عامة الناس بل إن الأعجب من ذلك أن التحدي ليشمل صاحب الدعوة نفسه وهو محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا ما سوف نفصله في الأسطر التالية:

القرآن يتحدى محمداً كبشر:

انها لمعادلة صعبة أن يخبر محمد بالقرآن الكريم، والقرآن يتحدى بشريته، ويقول له إنك كبشر عاجز عن الإتيان بمثلي، وإن دورك فقط هو: التلقي عن جبريل، ثم الحفظ والوعي، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ أما المعاني والالفاظ فلا شأن لك بها فهي من عند الله ولا قدرة لك على الإتيان بمثلها.

---

(١) إعجاز القرآن صـ ٢٥.

(٢) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ٥٣.

وقد يكون هذا الكلام غريبا عند النظرة السريعة، ولكن عند النظرة المتأنية نلاحظ أنه كلام واقعى يتمشى مع منطق العقل من جهة ومع نصوص النقل من جهة ثانية:

١ – أما تمشيه مع منطق العقل فلأن محمدا فى ناحيته البشرية والعقلية المحضة لا يتميز عن البشر فى شىء ولو أتى هو بمثله أو ببدله لأتى غيره وبذلك يسقط إعجاز القرآن وتسقط رسالته.

وليس هذا بغريب. ذلك أن الشرط الأساسى فى المعجزة: ألا يتمكن الرسول الذى جرت على يديه – من فعلها – لولا أن الخالق هو الذى أجرى هذا الأمر على يديه تأييداً له فى دعواه[١].

٢ – وأما تمشيه مع النقل فلأن القرآن حين تحدى البشر قال «قل لئن اجتمعت الإنس والجن» ولاشك ان محمدا واحد منهم.

٣ – ويدل على ذلك أيضاً أن المشركين حين طلبوا من رسول الله أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، أو أن يبدله، لم يفعل الرسول واعترف بعجزه أمام القرآن اذ هو خارج عن امكانته كبشر.

ويتيه القرآن فخرا وعظمة على سائر البشر – ومنهم محمد كبشر – والغريب أن الذى يحكى قصة العظمة والإعجاز هو محمد النبى – نعم يتيه القرآن فخرا حين يقول: «وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى، إن أتبع إلا ما يوحى إلى، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»[٢].

وهكذا يؤكد رسول الله على عجزه أمام هذا الكتاب فهو مجرد مبلغ لما يوحى إليه من ربه، ولقد مكث بين العرب من قبل نزوله أربعين سنة، لم يقل كلمة

---

(١) راجع صـ ٣٣٨ من العقيدة الإسلامية وأسسها للاستاذ عبد الرحمن حسن حبنكه.

(٢) سورة يونس الآية ١٥، ١٦.

واحدة مثل هذا الكلام المعجز يقول الله تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»[١] «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان»[٢].

٤ – ولا أدل على ذلك من أن الرسول فى بيانه واحاديثه كان أفصح البشر وأكثرهم بيانا ومع ذلك لم يصل مستوى سنة رسول الله إلى مستوى القرآن الكريم وأمامنا الآن آلاف مؤلفة من كتب السنة النبوية المطهرة فليقارن من يشاء بينها وبين القرآن الكريم وسوف يدرك أن أسلوب القرآن أعلى من أسلوب الأحاديث النبوية علوا خارقا للعادة، خارجا عن محيط الطاقة البشرية[٣].

لقد قام الإمام الباقلانى بسرد كثير من أحاديث النبى ورسائله وخطب الصحابة رضوان الله عليهم لكى يبين بعد الفرق بين أسلوب الحديث الشريف وبين القرآن الكريم، ثم يبين الفرق بين أسلوب خطب الصحابة وبين أحاديث الرسول أيضاً، وأنه فرق فى الفصاحة والمقاصد فقط ولكن الجميع يصدق عليه أنه كلام البشر خلافا للقرآن الكريم.

يقول الباقلانى «تأمل – هداك الله – ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلناه – من خطب النبى ﷺ واحد وسبكها سبك غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين، وذلك أمر له مقدار معروف واحد ينتهى إليه مضبوط، فإذا عرفت أن لجميع كلام الآدمى منهاج، ولجملته طريق وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت – ونظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى وتأملته مرة ثانية فتراعى بعد موقعه وعالى محله وموضعه[٤]». وهكذا فالأحاديث النبوية والوحى

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣.

(٢) الشورى الآية ٥٢.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ صـ ٢٣٤ وقارن صـ ٤٤٨ من نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهر ستانى – تحقيق الفرنجيوم.

(٤) إعجاز القرآن ص ١٣٧.

القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة إلا أن القرآن له نسقه الخاص وتركيبه المعين الذى لا يتسنى لمخلوق كائنا من كان أن يأتى بمثله(١).

إذاً فالقرآن معجز للإنسان مهما كان حتى ولو كان هو الرسول الكريم الذى اختاره ربه لتبليغ هذا الكتاب.

يقول ابن تيمية «فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه، لكل من له أدنى تدبر»(٢).

تحدى القرآن «للجن»:

ولم يقف التحدى بالقرآن عند حدود الإنس وحدهم فقد تعداهم إلى الجن أيضاً، بل أكثر من هذا تحداهم مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن كما ورد فى قوله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

وزعم بعض العلماء أن التحدى إنما وقع للإنس دون الجن واستدلوا على ذلك بأن الجن لم يكونوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه، ورد هؤلاء العلماء على الآية التى جمعت بين الإنس والجن فى التحدى بأن الجن إنما ذكر فى هذه الآية تعظيما لإعجاز القرآن، لأن للهيئة الإجتماعية من القوة ماليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع الثقلين فيه وظاهر بعضهم بعضا وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز. كذلك استدلوا على ذلك بادعائهم أن تحدى الجن مجرد دعوى بلا دليل وليس هناك طريق لإثباتها، ذلك أنه

---

(١) راجع ص ٢٠٩ من الظاهرة القرآنية.

(٢) الجواب الصحيح ص ٧٦ جـ ٤.

لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن الإتيان بأفعال عجيبة لايستطيعها الإنس(١).

وإلى مثل هذا ذهب القاضي عبد الجبار حين قال: «فإن قال قائل: أفليس النبي ﷺ قد تحدى الجن كما تحدى الإنس، فيجب ألا نعلم كون القرآن معجزا إلا بعد أن نعلم تعذر المعارضة على الجن، قيل: إذا لم يكن لنا في العقل طريق إلى معرفة الجن أصلاً، لأنهم لايشاهدون ولاتعرف أحوالهم بغير مشاهدة، فيجب ألا تعتبر حالاتهم وعاداتهم، لأن اعتبار العادة فرع على معرفة أهل العادات فإذا صح ذلك، فقد كفانا في معرفة كون القرآن معجزا بخروجه عن عادة من تعرف عاداته»(٢).

والذي يبدو من كلام القاضي عبد الجبار أنه يرجح التوقف في المسألة ما دام العقل لا يستطيع الفصل فيها، ولا يمكن أن نتعرف على أحوالهم وعاداتهم.

مناقشة هذا الرأي:

لاشك أن هذا الرأي مخالف لصريح القرآن الكريم فالآية هنا واضحة في أن التحدي موجه إلى الجن أيضاً وتعضدها آية سورة الجن «قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا» إلى قوله تعالى: «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا»(٣).

كذلك آية سورة الأحقاف «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٩.

(٢) راجع ص ٤٨٦ من كتاب الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن.

(٣) الجن ١٣.

مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم»[١].

فهذه الآيات صريحة وواضحة في أن الجن مكلفون باتباع رسول الله ومن هنا لابد أن يشملهم التحدى إذا فليس هناك ما يدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهرة في آية التحدى - كما حاول المنكرون أن يفعلوا، لأن ذلك تأويل لا مبرر له، بل آيات القرآن الكريم تنقضه.

وأما ما استدلوا به من أن الجن لم يكونوا من أهل اللسان العربي فهو كلام بلا دليل ولا برهان بل براهين القرآن تهدمه. اذ أنهم قد سمعوا ما أنزل إلى الرسول وفهموه وبلغوا به قومهم. فكيف لا يكونوا من أهل اللسان العربي وأما ادعائهم باستحالة الاستدلال على ذلك، فهو كلام لا معنى له، لأننا نستدل، على ذلك بإخبار الله لنا في كتابه الكريم، فضلا عن أن أشعار الجن قد تناقلها بعض الشعراء في الجاهلية وادعى بعضهم أن جنا معينا قد أوحى إليه بما قاله، وحين نقرأ هذه الأشعار نجدها لا تتميز عن شعر البشر في شيء[٢].

وأما قضية التوقف بحجة عجز العقل عن الفصل في المسألة التي أثارها عبد الجبار، فهي قد تكون مقبولة لو أن النص والوحي لم يفصل في القضية، أما وقد فصل فيها الوحي، فلم يعد لقضية توقف العقل معنى.

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن التحدى موجه إلى كل مخلوق حتى الملائكة، وإنما لم تذكر الملائكة في الآية، لأن الرسول لم يكن مبعوثاً إليهم وهذا ما قاله الكرماني في غرائب التفسير.

وعلى أية حال فيكفي أن نعلم أن حدود التحدى بالقرآن الكريم تشمل الإنسان أيا كان زمانه وأيا كان مكانه وجنسه، كما تشمل الجن أيضاً.

---

(١) الأحقاف (٢٩ - ٣٠ - ٣١).

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٩.

قدر (المتحدى به) من القرآن الكريم:

اختلف العلماء فى قدر المعجز المتحدى به من القرآن الكريم. فذهب بعض المعتزلة إلى أن القدر هو جميع القرآن، ورأيهم لا أساس له ويهدمه نص القرآن الكريم «فأتوا بسورة من مثله» وذهب بعض منهم إلى أن قدر المعجز من القرآن الكريم هى السورة المستقلة بنفسها حتى ولو كانت طويلة، بينما ذهب أبو الحسن الأشعرى إلى أن قدر المعجز من القرآن الكريم هى السورة قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها من الآيات، فإن كانت الآية بقدر حروف سورة حتي وإن كانت سورة الكوثر فذلك معجزة(١).

وسورة الكوثر ثلاث آيات قصار، وعلى هذا فمقدارها من آية، أو آيات طويلة له حكم السورة، وإذا كانت آيات القرآن الكريم تزيد على ستة آلاف ومائتى آية فمعنى ذلك أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة.

ومن العلماء المحدثين من ذهب إلى أن الإعجاز قد يكون بالآية بل وببعض الآية. يقول الدكتور الغمراوى: «وليس معنى التحدى بسورة أن ما دون السورة من القرآن. ولو كان أقصر سورة غير معجز كلا، فتعدد نواحى الإعجاز فى القرآن يجعل كل آية معجزة، بل كثير ما يكون بعض الآية معجزاً عند من يبصر ويعلم»(٢).

ورأى الدكتور الغمراوى فيه من الحماس والمبالغة ما لا يتفق مع الواقع. وذلك أن القرآن أشار إلى أن أقل المتحدى به هو السورة وقاس عليه العلماء الآيات المساوية للسورة، وحينما يدعى الدكتور الغمراوى بأن الآية وبعض الآية

---

(١) الباقلانى – إعجاز القرآن صـ ٢٥٤.

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ١٦٦ وقارن صـ ٢٩ وما بعدها من الفصل فى الملل والنحل حيث يرجح الشهرستانى رأى من قالوا بأنه معجز حتى بآية واحدة، بل بكلمة واحدة، حيث يقول: (إن كل كلمة قائمة المعنى نعلم أنها تثبت على أنها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك وهو رأى غريب قائم على أساس باطل وهو القول بالصرفة.

تصلح لأن تكون قدرا معجزا فانه ينظر إلى الموضوع من زاوية خاصة لم يهتم بغيرها وهى الإعجاز العلمى للقرآن، وحقاً إن الآية وبعض الايات قد يكون فيها إعجاز علمى، ولكن ليست كل آية كذلك، بل ليست كل سورة كذلك، ومن هنا كان رأى الأشعرى أرجح لأن كل سورة فى القرآن ولو كانت صغيرة فيها إعجاز النظم والبلاغة والتركيب وكل آية بقدر السورة فيها أيضاً مظاهر هذا الإعجاز.

وقد أشار الجاحظ إلى ذلك فى كتابه «حجج النبوة» فقال «لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، ألا ترى أن الناس قد كان يتهيء فى طبائعهم ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله وإنا لله، وعلى الله توكلنا (...) وهذا كله فى القرآن، غير أنه متفرق، غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذه سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه، لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان، ومعد، وعدنان»[١].

وقد نقل الألوسى فى مقدمة كتابه «روح المعانى» رأيا غريبا فى هذه المسألة يدعى صاحبه أن التحدى لم يقع بمطلق السورة بل بسورة تبلغ مبلغا يتبين فيه رتب ذوى البلاغة» وكأن صاحب هذا الرأى يرى أن هذه الرتب لا تظهر فى مقدار ثلاث آيات[٢].

وهو رأى لا قيمة له لأنه تناسى أن العرب الذين قامت عليهم الحجة بعجزهم عن التحدى قد عجزوا أمام طوال السور وقصارها ولم يأتوا بمثل هذه ولا تلك، ذلك أن سر الإعجاز فى القصير من سور القرآن مثله فى الطويل، كما أن سر الإعجاز فى خلق النملة مثله فى خلق الفيل[٣].

---

(١) راجع حجج النبوة على هامش الكامل جـ ١ صـ ٢٩٣.

(٢) راجع مقدمة روح المعانى للألوسى.

(٣) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ١٠٨.